هذه النقطة، واتكاؤها على مفهومات الثورة الفلسطينية وتجربتها يؤلف الاساس لأحد جناحي الفكر النضالي الذى استندت اليه . اما الجناح الثاني ، الذى يعادل الاول اهمية ان لم يفقه ، فهو الايديولوجية الطبقية ، ذلك ان « عليا الجديد » لا يعرف طريق الخلاص السليم الا بعد ان يتحد قلبا وقالبا مع الطبقة العاملة الفرنسية المناضلة ضد الفاشية ، فهناك يجد حمايته وهناك يجد دافعه وهناك يجد قوته وبالتالي امله .

ولكن ليس هذا كل ما تقوله الرواية عن الجانب الفلسطيني من « النقيض » . انها تتحدث بالتفصيل عن المأساة الاولى للفلسطيني قبل النكبة ، وعن عذابه في مقاومة الاستعمار البريطاني والصهيونية ، كذلك عن عذابه الاكبر مع عمه (زوج امه) الذى اغتصب الارض والاولاد والكرامة ، وحرم « عليا » من ابسط حقوق الدفاع عن ارضه . وفي « النقيض » تتضح ملامح عامة للهوية الفلسطينية وللمأساة الفلسطينية وللافق الفلسطيني * .

* * *

معنى « النقيض »

على ان « النقيض » ليست رواية الفلسطينيين وحدهم : انها رواية الصراع الذهني والاخلاقي والنفسي والحربي بين العرب والفلسطينيين واليهود الصهيونيين . وعلى الرغم من ان هذه الرواية تكثر من الرموز فانها، لا تتعب القارىء في الاستنتاج ، لان الرموز مصحوبة دائما بالحقائق غير المرموزة :

ولعل الخطوط العريضة التالية تشكل عناصر فهم « النقيض » لدى افنان القاسم :

١ ــ **« النقيض » شيء طارىء اقتضته تطورات غير طبيعية** وفي الاصل لا وجود لتناقض بين الاطفال : اذ التقى « علي » و « روزالي » على الحب منذ الطفولة وكان يمكن ان ينشأ بينهما حب عظيم، لولا ان الام (الصهيونية) تدخلت بينهما ومنعت ابنتها من الاتصال بعلي (الفلسطيني) وتعتبر هذه الحقيقة من « اللازمات » الثابتة في ذهن « علي » وقلبه . انه لا يفتأ ينكر هذا الامر كأنما ليذكر ان نقيضا مثل هذا « النقيض » الطارىء يمكن ان يوجد له حل جذرى . بل ان البطل يؤكد ذلك من خلال موقفه من « كابليوك » . انه يتعرف على « كابليوك » عن طريق اخته « روزالي » ، ولا يشعر تجاهه بأي شعور مضاد ، بل يسودهما في البدء شيء من التفاهم الانساني ، وان كان واضحا ان « كابليوك » ثقيل الظل ويحمل في ذاته عناصر تنذر بالشر ، ويتحمل « علي » ذلك بشيء من المضض ، ولكنه لا يناقش الامر من اساسه .

ولكن، فيما بعد، حين يتأكد له ان «روزالي» حجبت عنه بشكل قصدي ، تتراءى له فكرة « النقيض » ، وتكبر هذه الفكرة وتتضح بالتدريج ، ونراه يخاطب امه بمثل هذه العبارة : « ابوها أخذ الارض ، وامها اخذت مني اجمل لحظات طفولتي » .

ان القارىء لا يستطيع ان يجزم تماما بما يقصده « علي » من فكرة « النقيض » الطارىء . ويخيل اليه في اغلب الاحيان، ان المقصود هو فكرة النقيض بحد ذاتها لان حلم « روزالي » يلاحق البطل دائما ليذكره بأن « النقيض » طارىء . ولكن في بعض الاحيان يخيل للمرء ان المقصود هو ان مفهوم « النقيض » لم يكن حاضرا في ذهن الفلسطيني العربي، بينما كان واضحا في ذهن اليهودي الصهيوني . ان فكرة البراءة مستمرة لدى العربي حتى بعد الهجرة . وفي باريس يلجأ « كابليوك » الى غرفة « علي » الذي يستضيفه ويعطيه مفتاح الغرفة ويقاسمه قوت يومه . ولم يكن « علي » هنا مغفلا ولا ساذجا ولكنه كان انسانا طبيعيا لاحظ ان صاحبه مطرود ومشرد ومحتاج اليه ولم يفكر فيما هو ابعد من ذلك .

والفرق كبير بين المعنيين ، ولكنهما متداخلان في الرواية تداخلا شديدا . والتركيز متروح بين « براءة » القضية ذاتها وبين « براءة » الطرف الفلسطيني وحده . وبالطبع، تترتب على ذلك مفهومات سياسية بعيدة المدى . ففي الحالة الاولى مثلا (براءة القضية) يكون الحل الطبيعي هو ايجاد صيغة لازالة النقيض ولارجاع الامور الى مجراها الطبيعي ، وتكون مثلا فكرة « الدولة الديمقراطية الفلسطينية » التي تضم العرب واليهود دون تمييز

* جرت دراسة هذه الامور بالتفصيل في بحث مطول لكاتب هذه السطور بعنوان « الموضوع الفلسطيني في ثلاث روايات » وفيه عن « النقيض » ما يكمل هذه الدراسة .